الافرنج في التراث الفكري الاسلامي

م.د. وليد جاسم الزبيدي/ جامعة المستقبل- محافظة بابل

The Franks in the Islamic Intellectual Heritage

M.D. Walid Jassim Al-Zubaidi

AL_Mustaqbal University - Babylon Governorate

Research Summary

The history of relations between the Franks and the Islamic state is a long history, extending for many centuries, from the beginning of the Islamic message, to the establishment of the Abbasid state in its eras, then the Ayyubid state and the Mamluks, and it was between ebbs and flows, periods of wars, and a period of peace, which affected the regional and international environment and the trade and transportation routes. The Islamic and Frankish nations were influenced by the culture of each nation, and Muslim historians expressed in their works their point of view regarding this relationship. The different names and descriptions of the Franks were (the Franks, the Franks, the Franks, and the Franks), to denote the peoples of Europe, as they described them (the invaders, Enemies, infidels, polytheists, tyrants. (...

The religious roots became the main driver behind the theme of this relationship, and the Franks dressed it in the guise of holiness, imbuing it with legitimacy, holy war, and the only means of forgiveness)..

The research revealed the economic relations, the development in the agricultural sector and the system of feudalism in the Islamic states and kingdoms that began to disintegrate and fragment, and the social aspect and the moral decomposition that afflicted Islamic societies, prostitution, sexual deviance, and the spread of poverty and banditry. On the cultural and religious side, as a result of the state of disintegration and weakness, a state of isolation and isolation arose, the spread of the phenomenon of Sufism and drusha, the spread of hospices and zawiyas, and the emergence of Sufi sects and various movements, produced by societal reality and the shadows of political reality affected.

خلاصة البحث:

تاريخ العلاقات بين الأفرنج والدولة الاسلامية، تاريخ طويلٌ، امتدّ قرونا طويلا، منذ بدء الرسالة الاسلامية، الى قيام الدولة العباسية بعصورها، ثم الدولة الأيوبية والمماليك، وكانت بين مدّ وجزر، فترات حروب، وفترة سلام، أثّرت في المحيط الاقليمي والدولي وعلى طرق التجارة والمواصلات، وتأثرت الأمتين الاسلامية والافرنجية بثقافة كل أمة ، وقد عبّر المؤرخون المسلمون في مصنفاتهم عن وجهة نظرهم تجاه هذه العلاقة،

فكانت التسميات المختلفة ووصف الأفرنج، فكانت التسميات (الفرنج،والافرنج،والفرنجة،والافرنجة)،للدلالة على شعوب أوربا، كما وصفوهم(الغزاة، الأعداء،الكفّار، المشركين،الطغاة..).

وباتت الجذور الدينية المحرك الأساس في ثيمة هذه العلاقة، وألبسها الافرنج ثوب القداسة، وأصبغوها بالشرعية، والحرب المقدسة، والوسيلة الوحيدة للغفران.

وكشف البحث عن العلاقات الاقتصادية، وما كان من تطور في القطاع الزراعي ونظام الاقطاعيات في الدويلات والممالك الاسلامية التي أخذت بالتفكك والتجزئة، والجانب الاجتماعي وما أصاب المجتمعات الاسلامية من تحلل اخلاقي والدعارة والانحراف الجنسي، وانتشار الفقر واللصوصية. وفي الجانب الثقافي والديني ، نتيجة حال التفكك والضعف نشأت حالة العزلة والخلوة، وشيوع ظاهرة التصوف والدروشة، وانتشار التكايا والزوايا، وظهور الفرق الصوفية وحركات مختلفة، أفرزها الواقع المجتمعي وما تأثر من ظلال الواقع السياسي.

الكلمات المفتاحية

التراث الفكري- الافرنج-الحروب الصليبية-صلاح الدين الأيوبي- بيت المقدس- التصوف-طرق التجارة.

المقدمة

للبحث جذورٌ، نمت وظلت سؤالاً في الفكر والوجدان، منذ دراستي في المرحلة الابتدائية لمادة التاريخ الاسلامي، ظلتْ عبارة راسخة عندي من خلال قراءتي للكتاب المنهجي حيث يقول(وأهدى الخليفة العباسي هارون الرشيد هديةً الى شارلمان ملك الأفرنج وهي ساعة، فانبهر بها ملك الافرنج..).فكانت كلمة (الأفرنج) كلمةً غريبةً أجهلها، فبقيتُ أسأل الأهل ومعلمي. وما إن تخصصتُ في(التراث الفكري) حتى أطلقتُ العنان في البحث عنها في تراثنا الفكري، لعلي أقفُ على صحة التسمية ودورها وأثرها، فوقفتُ عندها لإضاءة معناها ومبناها ودلالتها وأثرها في العلاقات مع العالم الاسلامي، ليتنبه لها طالب اليوم ويتزود من هذا البحث جزءاً من المعرفة. والحمد لله على فضله وتوفيقه.

المبحث الأول

آ/ الفرنجة لماذا؟:

إن المؤرخين العرب وكتب التراث العربي القديم استخدموا التسميات (الفرنج،والافرنج،والفرنجة،والافرنجة)،للدلالة على شعوب أوربا، كما نلاحظ أن الهمزة وردت في كتب التراث مرةً مكسورة وأخرى مفتوحة. وقد وردت التسمية في معجم البلدان: (أفرنجة: أمة عظيمة لها بلاد واسعة وممالك كثيرة ..) [i].لقد اختلفت المساحة الجغرافية للمملكة الفرنجية عبر التطورات والأحداث التاريخية، ففي القرن السادس الميلادي كانت تمتد من البيرينيه إلى الراين الأسفل فإلى ألمانيا الوسطى، وهناك من الباحثين الغربيين والعرب منْ يؤكد تسمية إفرنجة بفرنسا الحالية، التي حملت قديماً إسم "غالة". كما أن هناك رأياً آخرَ يقول، أن غلبة العنصر الفرنسي في الحملة الأولى وارتباط ذلك العنصر بتسمية" الإفرنج". ومشتقاتها أثّرَ في طبيعة تسمية العرب للأوربيين المشاركين بالحروب(الصليبية) على اختلاف هوياتهم وأجناسهم، على الرغم من الوعي العربي بذلك الإختلاف ويقول أحد المؤرخين الغربيين(ول ديورانت) عن التأثير: كانت الحروب الصليبية الأولى في الأغلب مغامرة فرنسية، ومن أجل هذا ظل الشرق الأدنى إذا ذُكِرَ غربي أوربا سماه بلاد الفرنج أو الإفرنج[ii]. غير أن تلك التسمية الموحدة لم تكن تعني جهل العرب بالأصول والهويات المتنوعة للأوربيين الوافدين إلى بلادهم في موجات الحروب (الصليبية) المتعاقبة، فقد عبّر العديد من المؤرخين والأدباء عن تفهمهم ذلك الطابع المتعدد في تكوين الموجات الوافدة، ودليلنا على

ذلك قول ابن الأثير(ت630هـ): " كان الصليبيون شرذمة من الوافدين من كل بلد ،يستبيحون الأقوات والحرمات بلا رادع، ويستهينون بالمقدسات الدينية."[iii] .

وقد وردت لفظة" الفرنج، والإفرنج" في شعر أسامة بن منقذ(ت 584هـ/ 1188م) ففي قصيدةٍ إلى صلاح الدين الأيوبي (ت589هـ/1193م)، بعد انتصاره في مصاف عسقلان، يقول فيها [iv]:

الملوك في عقر دارهم أحدا -وما رأينا غزا الفرنج من

وكذلك في قصيدة له وردت تسمية"الإفرنج" وهو يمدح السلطان صلاح الدين [v]:

رجاه من ملك مصر كانَ في الحلمِ- وردّ طاغيةَ الإفرنج يحسبُ ما

ووردت نسمية "الفرنجة" في قصيدة الشريف الجواني المصري(ت588هـ)، يمدح فيها صلاح الدين الأيوبي ذاكراً فتحه للقدس [vi] :

القدسُ تُفتحُ والفرنجةُ تُكسرُ -أترى مناماً ما بعينيَ أبصرُ

أمّا المؤرخ ابن القلانسي(ت 555هـ)،فقوله في أحداث سنة ثلاث وخمسمائة للهجرة : "لمّا فرغَ الإفرنج من طرابلس بعد افتتاحها وتدبير أعمالها، وتقرير أحوالها، نهضوا إلى رفنية".إن تنوّع تسميات الأوربيين في مصنفات المؤرخين والأدباء في التراث العربي مرتبط بطبيعة استقبال الأسماء والمسميات الأجنبية في اللغة العربية، اللغة العربية الحية التي لها القابلية في التعامل مع كل اللغات الحية في كل عصر ومكان، فهي لغة القرآن، وطبيعتها تسمح بالتنوّع النسبي للصور والأشكال التي تأخذها من الأسماء المعرّبة، نظراً لغياب قاعدة لغوية محددة تحكم تعريبها."[vii].

وقد عبّر ابن الجواليقي (ت 540هـ) وهومعاصر أسامة بن منقذ، عن هذه الظاهرة في (باب معرفة العرب في استعمال الأعجمي)، فقالَ :" إعلم أنهم كثيراً ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية، إذا استعملوها، فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى اقربها مخرجاً، وربما أبدلوا ما بعد مخرجه أيضاً." [viii]. وقد استمرت هذه الظاهرة اللغوية حتى العصر الحديث على الرغم من ولادة المجامع اللغوية العربية والعلمية وجهودها الحميدة في سبيل توحيد تلك المسميات والمصطلحات الأجنبية في اللغة العربية.

ب/مصادر دراسة حروب الفرنجة:

في قراءتنا للمصادر التاريخية الإسلامية التي عاصرت حروب المسلمين مع الإفرنج أو التي تلتها ،لم نجد كاتباً أو مؤرخاً نهضَ بمصنّفٍ أفردهُ لتلك الحروب، ولكنّنا قرأنا أخبارها مبثوثةً بين ثنايا الكتب القديمة بإشارةٍ أو بذكر معركةٍ، أو تسجيل أحداث سنيّها أو ترجمةِ فرسانها مع عنايةٍ هنا وإهمالٍ هناك، ومع تفاوتٍ بين أمهات كتب التاريخ الإسلامي بين مطنبٍ وموجزٍ، لتلك الوقائع ووصف الأقاليم التي أمست مسرحاً لإحداثها.

ومن المصنفين العرب المسلمين الأوائل الذين أرّخوا بمصنّفاتهم لحروب الفرنجة وأفردوا لها قدراً متبايناً هم(وقد تم ترتيبهم حسب سني وفياتهم) [ix]:

1- ابن القلانسي،أبو يعلي حمزة بن أسد التميمي(ت 555هـ/1160م)، مؤرخٌ دمشقي، أتم تاريخَ هلال الصابي الذي وقفَ عند عام 448هـ، فوصلَ به إلى عام 555هـ، في كتابه(ذيل تاريخ دمشق)، وهو أوّلُ منْ تعرّضَ للحروب الصليبية من المؤرخين العرب، وقد شغلَ ابن القلانسي عدّةَ مناصبَ إداريةٍ هامة في دمشق والشام، مما أتاحَ لهُ أن يخبرنا عن قُرب، أحداث الحربين الصليبيتين الأولى والثانية حتى وقت دخول نور

الدين محمود دمشق. فعلى ذلك فإنّ رواياتهُ للأحداث اتّسمت بالموضوعية الدقيقة لشاهد عيان، وكثيراً ما استعان في كتابتها بالوثائق المتوفرة لديه.

2-أسامة بن منقذ(584هـ/1188م)، من فرسان العرب ومن الأدباء المقربين من الملوك والسلاطين، وُلدَ بشيزر شمالي حماة، وتوفّي بدمشق عن ثلاثة وتسعين عاماً، وقد استولى الصليبيون على بيت المقدس وهو في الرابعة من عمره، واستعادها صلاح الدين قبل وفاة أسامة بعام واحد. وكان طوال حياته على صلات مستمرة بالإفرنج، يخاصمهم حيناً، ويصادقهم حيناً، ويشتركُ في الحرب ضدهم ويخرجُ للصيد معهم. إشتركَ مع نور الدين محمود ابن مولاه السابق زنكي في القيام بعدة حملات على الصليبيين. وقد خلّفَ لنا في كتابه(الإعتبار) صوراً قويةً حيّةً للعصر الذي عاشَ فيه حالتي الحرب والسلم. وهو عبارة عن مذكرات لها من أهميةٍ خاصة فريدة بين المصنفات العربية.

3- العماد الأصفهاني،عماد الدين بن عبد الله محمد بن محمد الكاتب (597هـ/ 1201م)، ولِدَ بأصفهان، ثم انتقلَ إلى بغداد فدمشق، حيثُ أصبحَ كاتباً لنور الدين ورئيساً لديوان رسائله. ولقد لحقَ بصلاح الدين وكتبَ لهُ وصارَ في مرتبة وزرائه، وأرّخَ لأحداث عصره التي شاركَ فيها بنفسه، في عدّة كتب، منها(الفتح القسي في الفتح القدسي)، وهو تاريخٌ مسجوعٌ موشى بالمحسنات اللفظية الثقيلة، وكتابه الآخر (البرق الشامي)، وقد ذكرَ فيه أحداث من تلك الحروب وقد ذكرَ عدداً من الوثائق منها الرسائل التي كُتبت بقلم القاضي الفاضل.

4-ابن الأثير،أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني ألجزري الملقّب بعز الدين؛

(ت 630هـ/1232م)، وُلدَ بجزيرة ابن عمر الواقعة على نهر الفرات، وتوفّي بالموصل، وقد نشأ نشأةً علميةً، في كنف أمراء البيت الزنكي، وتنقّلَ بين المدن الإسلامية الكبرى كالموصل وبغداد ودمشق والقدس، ويُعتبرُ كتابهُ المشهور(الكامل في التاريخ) مصدراً رئيساً ذا قيمةٍ عظيمةٍ فيما يتعلّقُ بالسنوات حتى عام 628هـ. وهو يتميز بالبساطة والحيوية، وبالرغم من ولاء ابن الأثير لأسرة زنكي، فهو يُبدي تقديره لصلاح الدين وإعجابه به، وقد أرّخ لتلك الفترة التي عاصرها.

5- أبو الفضائل الحموي، محمد بن علي بن نظيف(630هـ/1232م)، لقد عملَ في خدمة أمراء الأيوبيين بالشام، وأهدى كتابه في التاريخ إلى الملك المنصور صاحب حمص، وأسماه (التاريخ المنصوري)، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان،وهو يتعرّضُ للأحداث حتى عام 1233م، ويمدّنا بمعلومات وأخبار عن حملة الإمبراطور فردريك الثاني على الشام.

6- ابن شدّاد، بهاء الدين يوسف(ت 632هـ/ 1234م)، وُلدَ في الموصل ودرسَ بها وببغداد، والتحقَ بخدمةِ صلاح الدين عام 1188م،فعيّنهُ قاضي العسكر لبيت المقدس، وظلّ صديقهُ الحميم المقرّب حتى وقت وفاة السلطان، وأهم تصانيفه سيرته التي كتبها عن صلاح الدين بعنوان(النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)، وهو مصدر تاريخي فيما يختص بشخصية صلاح الدين وأحداث السنوات الأخيرة من حياته وتقلبات الأحوال به،ووقائعه، وهي أحداثٌ شاركَ ابن شدّاد في معظمها.وتأتي أهمية هذا الكتاب في موضوعه، باعتباره أوثق المصادر التاريخية التي كتبت عن القائد صلاح الدين الأيوبي لأنه صُنّفَ من شاهد عيان للأحداث التي دوّنت فيه، أو رواية منْ يثق به هذا المصنّف ممن شاهد هذه الأحداث [x].

7- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي(ت654هـ/1256م)، وُلدَ ببغدادَ، وعاشَ معظم حياته في دمشق صديقاً لأمراء البيت الأيوبي، ومشتغلاً بالوعظ وكتابة تاريخه الكبير(مرآة الزمان في تاريخ الأعيان)، وهو مصدر مهم فيما يتعلق بأحداث الشام زمن حياة المؤلف.

8- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله(ت660هـ/1262م)، مؤرخُ مدينة حلب التي وُلدَ ونشأ فيها، وقد ألّفَ في تاريخ هذه المدينة كتابين، هما (بغية الطلب في تاريخ حلب)، و(زبدة الحلب من تاريخ حلب) ويعتبر مصدراً مهماً لأحداث الحروب الصليبية في شمال الشام حيث ينتهي بأحداث عام 1243م.

9- أبو شامة، شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم(ت665هـ/ 1267م)، قضى حياتهُ كلها بدمشق عدا سنة واحدةٍ أمضاها في مصر للدرس، وزيارات قصيرة لبيت المقدس والحجاز. أهم مؤلفاته(كتاب الروضتين في أخبار الدولتين)، وهو تاريخ للدولتين النورية والصلاحية، وتاريخٌ يؤرخُ لنور الدين وصلاح الدين، يستقي من مصادر مهمة مباشرةً بعضها لم يصل إلينا كتاريخ ابن أبي طيء المؤرخ ، كما يدعمُ روايتهُ بوثائق مستقاة في جوهرها من القاضي الفاضل والعماد الكاتب.

10- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم(ت 697هـ/1298م)، وُلدَ بحماة وعملَ بها مدرّساً حتى أستدعي إلى القاهرة عام 1261م للخدمة بها، وقد بعثهُ الظاهر بيبرس في مهمة إلى صقلية عند مانفريد فمكثَ هناك مدةً طويلةً، وهو صاحبُ كتابٍ مهم في تاريخ الأيوبيين ،عنوانه: (مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب)، وصلَ فيه إلى أحداث عام 1282م، وهو بالتالي من أهم المصادر الخاصة بالحملات الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي.

11- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت 807هـ/ 1405م)،مؤرخٌ مصري، لهُ كتابٌ شاملٌ في التاريخ بعنوان(تاريخ الدول والملوك) المعروف بـ(تاريخ ابن الفرات)، وقد أرّخَ الأحداث من القرن الرابع الهجري إلى القرن الثامن الهجري، وقد نقلَ في كتابه من مصنّفات منْ تقدّمهُ نقلاً حرفياً، مما زادَ كثيرا من قيمة هذا المصنّف الذي يحوي أخبار عن الحروب الصليبية وعن عصر المماليك.

12- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر(ت 845هـ/ 1441م)، من المؤرخين المصريين، وُلدَ بالقاهرة وعملَ بديوان الإنشاء ثم قاضياً فإماماً لجامع الحاكم. واختارهُ السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري. له مؤلفات قيّمة في تاريخ مصر منذ الفتح العربي إلى قبيل وفاته، أهمها كتاب(السلوك لمعرفة دول الملوك) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، وكتابه الثاني المواعظ والإعتبار المعروف(الخطط المقريزية).

13-ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت 874هـ/ 1469م)، كانَ أبوهُ في عهد السلطان فرج القائد الأعلى للجيوش المصرية، ثم نائب السلطان في دمشق، واشترك أبو المحاسن مشاركةً فعليةً في الحملة الشامية للسلطان برسباي، أصبح بوفاة المقريزي والعيني أهم مؤرخٍ مصري لأحداث عصره. أهم كتبه(النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، وهو تاريخٌ لمصر من الفتح العربي حتى عام 1467م، إختصرَ فيه المؤلفات التاريخية لمن سبقوه، وأضافَ إليهِ ذكر ما عاصرهُ من أحداث.وهو قد مرّ على سنوات الحروب الصليبية وذكر أحداثها.

14- العيني، بدر الدين محمود(ت 855هـ/ 1451م)،مؤرخٌ من عصر المماليك، وُلدَ في عينتاب، وتوفّي بالقاهرة. أختيرَ لوظيفة المحتسب بالقاهرة والوجه البحري عام 1399م بدلاً من المقريزي، وتولى منصب قاضي قضاة الحنفية. له تاريخٌ شاملٌ ضخم بعنوان(عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان).

المبحث الثاني

1/ تاريخ حروب الفرنجة

لقد أُستُعمِلَ الدينُ في العصورِ الوسطى لخدمةِ الأغراضِ السياسية، وتجسّدَ بأوضح صورة في الحروبِ الصليبية. ففي خضمّ تاريخ الحركة الصليبية يكتشفُ المتابعُ كيفَ يصل الحكّامُ في استغلالهم الدين إلى درجة نسج أيديولوجية تدّعي الانتساب إلى الدين ، على حين أن هذه الإيديولوجية في حقيقة أمرها تناقض الاتجاهات الأصلية والأساسية في هذا الدين [xi] . لقد كانت فكرة الحروب الصليبية هي نتاج أفكار مجتمع غرب أوربا ومُثُله العليا وأساطيرهِ وخرافاتهِ، تديّنه وقسوته وروحه العسكرية، كما كانت تعبيراً عن التغيرات

الاجتماعية التي طرأت في صياغة الأفكار الصليبية، وفيما يتعلق بفكرة الحرب المقدسة فقد شهدت تطوراً فريداً مناقضاً لفكرة الحرب المسيحية الأولى الساعية إلى السلام والتسامح، إلى فكرةٍ جعلت من الحرب أمراً من الرّب يشنّهُ بنفسه وينفّذهُ من خلال المسيحيين جنود المسيح. واختلطت القدس السماوية بالقدس الأرضية في أذهان المعاصرين، كما امتزجت الرؤى الدينية بالحقائق المادية امتزاجاً كاملاً بشكل يؤكدُ فكرة الخلاص التي كانت من أهم التطورات التي طرأت على الحج المسيحي [xii].

إنّ الأسباب التي أدّت إلى الربط الفكري بين الحج والحرب المقدّسة من نتاج الجو الفكري والنفسي المشبع بالأفكار الأخروية وهو الجو الذي كان سائداً عشية الحروب الصليبية. فكانَ الناس يتوقعون القيامة، وأذكى المبشرون الجوالون والحجاج العائدون نيران الكراهية ضد المسلمين الذين شاعت عنهم قصص تدمير الكنائس وقتل المسيحيين في الأرض المقدسة. فالواقع في تاريخ الحركة الصليبية يقوم إلى حد بعيد على أرضية من تراث حركة الحج في الفترة التي سبقت سنة 1095م.وكانت الحملات الصليبية في جانب منها على الأقل هي التطور النهائي الذي انبثق عن تراث الحج في القرن الحادي عشر الميلادي، فهي تمثّلُ التزاوج بين الحج والحرب المقدسة، كما أن الغطاء القانوني للصليبي هو وجه واحد لا يختلف عن قانونية وشرعية الحاجّ، فكلاهما يخرجُ في رحلته بناءً على أمر الكنيسة، أوبتصريح منها.

وقد أصدر مجمع كليرمون(18-27 نوفمبر1095م) مرسوماً يمنحُ الغفران لمن يشاركون في الحملة الصليبية، على الرغم من أن هذا الغفران محدود في نطاق الإعفاء من التكفير من الذنوب، فإنهُ قرّرَ بشكلٍ واضحٍ أنّ هدفَ الحملةِ هو تحرير القدس.ويشير قسمٌ من الدارسين إلى وجود التأثير الإسلامي على مفهوم الحربِ المقدسة عند المسيحيين، فيربطون بين فكرة الجهاد الإسلامي وبين فكرتهم في الحرب المقدسة.وهذا المفهوم مخطوءٌ وفيه من التفسير اللامنطقي لمفهوم الجهاد الذي يُعدّ ركناً من أركان الإسلام، وقد تم تشريعه لقتال الكفار ونشر العدل والفضيلة في الأرض [xiii].

كانَ القرن الحادي عشر الميلادي في أوربا بدايةً لحقبةٍ استمرت ثلاثة قرون تجلّت خلالها سمات الحضارة الأوربية في العصور الوسطى بالقدر الذي جعلَ المؤرخين يصطلحونَ على تسمية هذه الحقبة بإسم العصور الوسطى العالية أو الناضجة،فقد كانت عصر الجنود، والأبطال، ورجال الدولة، وزعماء الكنيسة. في تلك الأثناء،كانَ الفلاحون الباحثونَ عن أراضٍ أفضل، والمهاجرون إلى مدنٍ جديدة ناشئة، والتجار المسافرون على الطرق الأوربية، وشعراء التروبادور، المتنقلون بأغانيهم من قلعةٍ إلى أخرى، والنسّاك المنسحبون من العالم بإغوائه وشروره، والمبشرون الجوالون، والصليبيون، والحجاج، كل هؤلاء جنود الحرب المقدسة، يسعونَ لها سعياً، وكلٌ له هدفه وآماله وأطماعه[xiv].

بدأت الحروب الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري، فكانت إمارتهم الأولى بعد هزيمة السلاجقة والاستيلاء على مدينة الرّها [xv]. ثم توالت إماراتهم ، قالَ ابن الأثير:

(وركبَ الناسُ السيف ولبثَ الإفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين وأضحى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام. فبذلَ لهم الإفرنج الأمان فسلموه إليهم، وقتلَ الإفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كبيرة من أئمةِ المسلمين وعلمائهم .) [xvi] . وكانت إمارة بيت المقدس أقوى الإمارات اللاتينية بالشام، وكانت الإمارات الثلاث الأخرى تخضعُ لأميرها. وقد امتدت هذه الإمارة فأصبحت حدودها من العقبة على البحر الأحمر إلى بيروت، ومن البحر المتوسط إلى نهر الأردن. المرحلة الثانية من الحروب الصليبية، بدأت هذه المرحلة بشعور المسلمين بالحسرة على تفتت أجزاء العالم الإسلامي، كما وصفها ابن الأثير، وقد دفعهم هذا الشعور إلى محاولة المقاومة والدفاع، فقامت دعوات للجهاد في أمصار المسلمين، كان عمادها الفقهاء والعلماء [xvii].

وقد بدأ الصراع بين الموصل والرّها مع بداية القرن السادس الهجري، وقد تطوّرَ هذا الصراع بظهور عماد الدين زنكي واستيلائه على الموصل ثم حماة ثم الرّها..، وهكذا بدأت معارك التحرير وانتهت بتتويج بطلها السياسي والحربي السلطان صلاح الدين لكل هذه المعارك والفتوحات بتحرير بيت المقدس [xviii].

2/آثار حروب الفرنجة

تمثّل حروب الفرنجة مع المسلمين فصلاً هاماً في حياة الشرق الإسلامي والغرب المسيحي ، وتصادماً بين حضارتين وتجربتين عالميتين،أثّرا سلباً وإيجاباً على مجمل الأحداث لاحقاً، ومن خلال دراستنا للمصادر التي ذكرناها في الصفحات السابقة لم نجد نظرة تحليلية لتلك الحروب وكل ما نقرأهُ في تلك المصادر لايتجاوز وصف الوقائع العسكرية وبعض الأحداث السياسية ، وهذا مؤشر ضعف على المؤرخين الإسلاميين الذين لم يقرأوا الأحداث ، ولم نلحظ التوجه التحليلي إلاّ في الدراسات الحديثة .وقد كانت درجات الأثر على مستويات عدّة، هي: سياسية،عسكرية، اقتصادية ،ثقافية،وكان للأثر السياسي فيها، أن نموذج دولة الخلافة قد انتهى عملياً في خضم الصراع ضد الفرنج، وقد تم تكريس نموذج الدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب بدلاً من دولة يقودها خليفة لايتمتع بأية سلطة حقيقية. كما ظهر التفرّق والتنازع في عموم الدولة الإسلامية وظهور الإمارات والدويلات الضعيفة المتفرقة.كما واقترن الأثر السياسي بوضع موارد الدولة كافة في خدمة المجهود الحربي.ويمكن أن نشير هنا إلى أهم تلك الآثار التي خلّفتها تلك الحروب إبّان ذلك العصر:

1-على أثر الحملات المتتابعة بدأت الهجرات الكبرى من الغرب إلى الشرق ، وخاصة المناطق الساحلية ، حيث خلت ببدء الحروب من سكانها المسلمين واصبحت مأوى للمسيحيين من الجنود والمهاجرين، ونشأت جغرافية جديدة للإمارات ومنها (الرّها) أو (ادسا)، أكثر سكان هذه المدينة كانوا مسلمين، ثم من السريان والنسطوريين والأرمن، وعند هجوم الفرنجة(الصليبيين) أصبح معظم سكانها من المسيحيين اللاتين . وفي امارة أخرى وهي (انطاكية)، كان يسكن أثرياء الأفرنج والسريان واليونان والأرامنة والمسلمون[xix].

2- إنّ الآثار العمارية والبنايات الباقية في المنطقة، خصوصا لبنان، تدل على تزايد عدد المسيحيين بعد الحروب، والتي لاتزال شاخصة منها الكنائس(كنيسة ماريوحنا في جبيل، وكنيسة مارمرقس في صور، ومار يوحنا في بيروت).

3-بعد اخفاق الفرنجة(الصليبيين) في الإستيلاء على مصر، هاجرت أعداد كبيرة من مسلمي الشام إلى مصر. أمّا المسلمون الذين كانوا يسكنون المناطق الداخلية من الشام بصفتهم الأقلية، حافظوا على هويتهم وتعاونوا مع المحاربين المسلمين في المناطق المحتلة من قبل الإفرتج.

4- انتشار ظاهرة التصوّف والدروشة، والتي جاءت وولدت نتيجة حالة التفكك في البلاد الإسلامية وروح اللامبالاة والضعف، فنشأ حب العزلة والخلوة للدعاء بعد أن لاحظ العامة أن لا رجاء من الدولة الإسلامية لإعادة هيبتها ومقارعة الأعداء. وقد ولّدت هذه الحالة أيضا انصراف العامّة إلى الأحلام ورؤية الأنبياء والأولياء، ونلاحظ في كتب الفن والعمارة الإسلامية انتشار التكايا والزوايا في مصر والشام، وكثرة الفرق الصوفية(الفرقة الرفاعية، المنسوبة الى أحمد الرفاعي(ت578هـ/1183م)-والفرقة الأحمدية التي أنشأها أحمد البدوي(ت675هـ/1276م) في طنطا،والفرقة المولوية والفرقة الشاذلية...).

5- وخلال تلك الحروب وما بعدها ظهرت أمراض اجتماعية كبيرة، كالتحلل الخلقي والدعارة والإنحراف الجنسي.

6- في العهد الأيوبي كانت الإقطاعات وراثية ولكن على عهد المماليك وعلى أعتاب نهاية تلك الحروب تغيرت العلاقات التي كانت تتحكم بالإقتصاد، فتحوّل الإقطاع الوراثي إلى إقطاع خاص، حيث أصبح للسلطان المملوكي الحق في استرجاع الأرض المقطوعة ، ولم يحق للمير أو القائد أن يوصي بتلك الأرض إلى أولاده [xx].

7-أثّرت حروب الفرنجة(الصليبية) كثيرا في ثقافة المسلمين.فقد دخلت الكثير من الألفاظ الأجنبية في النصوص العربية النثرية منها والشعرية فضلاً عن استخدام تلك المفردات في عمليات البيع والشراء، كما ظهر شعر الإستغاثة .

8-الإزدهار التجاري في بعض مدن شرق البحر الأبيض المتوسط يعتبر من الآثار الإقتصادية الواضحة إبان وبعد الحروب (الصليبية).

9- إنّ التأزم العسكري في منطقة الشام باعتبارها ساحة الحروب الصليبية (شمال البحر الأحمر) أجبرت المسلمين من الأندلس وشمال أفريقية الراغبين بالحج على اتخاذ طريقاً جديداً وهو طريق نهر النيل إلى قوص وعيذاب ومن ثم إلى جزيرة العرب ، فكان أن إزدهر اقتصاد المنطقتين(قوص وعيذاب) [xxi].

الهوامش

1 الحموي، معجم البلدان: 1/ 288.

2 عبد القوي، زينب عبد المجيد، الإنجليز والحروب الصليبية في الفترة (من 1189م - 1291م)، الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – القاهرة 1996م: 91.

3 ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 9/ 189.

4 أسامة بن منقذ الشيزري (ت 584 هـ)، كتاب الاعتبار، قدم له: عبد الكريم الأشتر، ط4، المكتب الإسلامي، 1424 هـ/ 2002م: 135.

5 أبو شامة، كتاب الروضتين: 1/ 156.

6 العماد الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء مصر: 1/ 177.

7 ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بم أسد (ت 555 هـ)، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق:سهيل زكر، طباعة دار حسن بيروت د.ت: 624 .

نتائج البحث

لا بُدّ للبحث أن يجد ضالته بعد هذا الاسفار والسياحة بين مصادر ومراجع طرحت آراءً ومفاهيم حول موضوع مهمٍ، ما زلنا نتعايش ونتعامل معه بطرق اختلفت ورؤىً وأساليب تمثل هوية كل عصر. وهو الخلاصة التي نتوخاها ونضع حصادها هنا:

في الجانب اللغوي: لغتنا العربية، أمتحنت بكل العصور، وتعرضت الى هجمات معلنة وغير معلنة، إلا أنها أثبتت أنها لغةٌ حيّةٌ، حفظها الله بقرآنٍ مجيد، لذلك لاحظنا كيف تعدّدت تسميات الغرب، وكيف احتوتها لغتنا العربية، وما للغتنا من حياة ومساحةً من احتواء اللغات الأخرى في ترجمة العلوم وتعريبها، وتعريب العديد من المصطلحات بما يناسب العقل والذوق العربي.

وهكذا وردت لفظة (الفرنج) في كتب المؤرخين العرب والمسلمين وأشعارهم ومخاطباتهم فكانت بصور متنوعة (الفرنج،والافرنج،والفرنجة،والافرنجة). وما احتوته كتب التعريب المختلفة التي صدرت وشاعت

آنذاك. وكشفت لنا كتب المؤرخين القدماء جوانب مختلفة للعلاقة بين الدولة الاسلامية وبلاد الافرنج، التي لم تقتصر على الدولة العباسية منذ حكم الخليفة هارون الرشيد(ت193هـ)، بل امتدتْ الى أمراء الدولة الأموية في الأندلس، وممالك شمال أفريقية، مثل الأدارسة والأغالبة، وأمراء مدن ايطاليا من المسلمين، والدولة الأيوبية وزمن المماليك، وامتدت الى مجموعةٍ متنوعةٍ من أمراء البحر الذين جابت سفنهم منطقة غربي البحر المتوسط.

وفي الجانب الثقافي، وردت كلمة (الأفرنجة) بتسمياتها المتعددة في أشعار العرب والمسلمين، وظهرت في تلك القصائد تأثير ظلال الثقافة (الفرنجية). كما أثّر اختلاط الأهالي الأصليين من العرب والمسلمين في المناطق التي تم احتلالها من قبل (الأفرنج) تأثير الأهالي على الأفرنجيين في العادات وطريقة العمل واللغة.وكذلك ما فعلته الترجمة من أثر كبير في نقل العلوم العربية اليهم، وكذلك الانتفاع بما لديهم من معرفهم ونقلها الى العربية.

وفي الجانب الثقافي والمعرفي أيضا، انتشار ظاهرة التصوّف والدروشة، نتيجة للضعف الحاصل في الدولة وانحسار هيبة الخليفة، فنشأ عند العامّة حب العزلة والخلوة والدعاء، وانصراف الناس الى الأحلام وتفسيرها، وجانب رؤية الأنبياء والصالحين في الأحلام، وأدى هذا الانعزال والتصوف الى ظهور ونشوءالتكايا والزوايا في مصر والشام، وظهرت الفرق الصوفية منها مثلا(الفرقة الرفاعية، الأحمدية، المولوية، الشاذلية..). هذا الانحلال والتفكك والانهيار التدريجي للدولة أدّى، في جانب التصوف والدين، حالات مناقضة في المجتمع التحلل الخلقي والدعارة والانحراف الجنسي.

في المنحى التجاري والاقتصادي: كانت العلاقات بين الدولة الاسلامية والافرنج غير مستقرة بين حروب وفترات سلم.وشهدت فترات السلم تبادل الزيارات (الوفود،السفراء، المبعوثين،الرسل،..) وكذلك تبادل الهدايا. وهذه النشاطات تعطي رسائل للعالم في تعظيم مكانة كلا الطرفين واضفاء مظاهر الهيبة والقوة والاحترام، في نظر أتباعهم ورعاياهم، والأمم الأخرى. وشهِدتْ فترات السلام نشاط التجارة في الأمتين، لدى العامّة، حيث تزدهر التجارة ومصالح الناس والرعية، فطرق التجارة الرئيسة الى الهند والصين تمرّ عبر ديار المسلمين، واحتلّ (الافرنج) ابرز مراكز للتجارة العالمية في الساحل الشامي مثل(عكا، طرابلس).

وفي المجال الاقتصادي أخذ الجانب الزراعي المنحى الأكبرتفاعلاً وتأثيراً، فمن جانب (الافرنج)، أفاد (الأفرنج) من خبرات شرقية في مضمار الزراعة، تعود الى الحضارات الأولى للبلاد الاسلامية، بنقل المخطوطات والصحف في مضمار الزراعة،مثل كتاب (الفلاحةالنبطية) المنسوب الى (ابن وحشية)، ونقل الافرنج نباتات وصناعات اسلامية لم يعرفوها ولم يتقنوها، مثل القطن-الحرير الموصلي-الدمقس القز – الليمون- البطيخ،...

وبعض المنتجات الزراعية والصناعية انتقلت الى بلاد الافرنج بنفس مسمياتها العربية.

أمّا في الدولة الاسلامية التي تفككت وأصبحت دول وممالك واقطاعيات، فقد تغيرت بعض القوانين التي تخص الجانب الزراعي، وفي نظام الاقطاعات حصراً. تغيّر النظام الاقتصادي، فبعدما كانت طريقة نشوء الاقطاعيات في العهد الأيوبي أصبح اقطاعاً وراثياً للقادة والأمراء، تحوّل الاقتصاد في عهد المماليك، من الاقطاع الوراثي الى قطاع خاص، فأصبح من حق السلطان المملوكي استرجاع الأرض المقطوعة ولم يحق للأمير أو القائد أن يوصي بتلك الأرض الى أولاده.

نظرة بعض المؤرخين المسلمين: عبّرَ بعضُ المرخين المسلمين في كتبهم، عن وجهة نظرهم ونظر الرأي العام الاسلامي السائد عند حديثهم عن (الافرنجة)، فيتم وصفهم ببعض الكلمات منها (الغزاة لديار الاسلام، الأعداء، الكفّار، المشركين، الطغاة،..) لما فعلوه في حروبهم من قتل وانتهاك حرمات .

ارتبط الفكر(الأفرنجي) في ستراتيجية حروبه على البلاد الاسلامية بالطابع الديني، وربط الحروب بالحج المقدّس، وجعل حروبه مقدسة، واعتبار الأمر أمراً من الرب، فاختلطت القدس السماوية بالقدس الأرضية، وهي الطريق الأقرب للوصول الى بيت المقدس واحتلال اراضي المسلمين والاستيلاء على مقدساتهم، واضافة الشرعية الى حروبهم ، ودور المبشرين والجوالين في زرع الكراهية ضد المسلمين، وفق الغطاء الديني. وما فعله من تحشيد وتأييد مرسوم مجمع كليرمون(18- 27 نوفمبر 1095م) الذي يمنح الغفران لمن يشارك في الحملات الصليبية.

إذن نلاحظ أن الفترات التي شهدت الحرب بين الطرفين(الاسلامي) و(الآفرنجي) هي أطول من فترات السلم التي تشهد ازدهارا للتجارة والثقافة والتبادل المعرفي بين الأمتين.

وفي كلا الحالتين: (الحرب والسلم) كان لهما دور كبير وتأثير في الحياة المجتمعية بما تحمله من ثقافات متعددة وعادات وتقاليد انتفعت منهما الأمتين.

الهـوامـش

---

[i] الحموي، معجم البلدان: 1/ 228.
[ii] عبد القوي، زينب عبد المجيد، الانجليز والحروب الصليبية في الفترة(من 1189م- 1291م)، الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية – القاهرة، 1996م : 91.
[iii] ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 9/ 189.
[iv] أسامة بن منقذ الشيزري(ت584هـ)، كتاب الاعتبار، قدّمَ لهُ: عبد الكريم الأشتر،ط2، المكتب الاسلامي، 1424هـ/2002م: 135.
[v] أبو شامة، كتاب الروضتين: 1/ 156.
[vi] العماد الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء مصر: 1/ 177.
[vii] ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد(ت555هـ)، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، طباعة دار حسان-بيروت،د.ت: 264.
[viii] ابن الجواليقي، ابو منصور موهوب بن أحمد بن الخضر(ت540هـ/1145م)، في التعريب والمعرب، أو حاشية ابن بري على كتاب المعرب لإبن الجواليقي، تحقيق: ابراهيم السامرائي، ط1، مؤسسة الرسالة-بيروت، 1985م: 22.
[ix] وللإطلاع على مصادر أكثر في دراسة الحروب الصليبية،يُنظر:في البحث الذي أعدّه كوركيس عواد عضو المجمع العلمي العراقي، وينطوي على (تَثَبتٍ) مستفيض بما تم تأليفه قديماً وحديثاً أو مكتوباً باللغة العربية أم بغيرها من اللغات، يدخل في ذلك الكتب والرسائل والفصول والمقالات والنبذ التي عني فيها مؤلفوها بتدوين أخبار تلك الحروب. وقد رتّبها الباحث على صنفين: الأول: ما كان مؤلفاً باللغة العربية، أو ببعض اللغات الشرقية التي تتخذ الحروف العربية فيما تكتبه، وقد أدرجها حسب السياقة الهجائية لعناوينها. والثاني: ما كانَ موضوعاً باللغات الغربية التي تتخذ الحروف اللاتينية وسيلة للكتابة.
-عنوان البحث: مصادر دراسة الحروب الصليبية-كوركيس عواد، مجلة المورد العراقية، مجلة تراثية فصلية، وزراة الثقافة والاعلام العراقية، المجلد السادس عشر-العدد الرابع، 1408هـ/ 1987م: 232- 263.
[x] يُنظر: محمد جاسم الحديثي، مرويات ابن شداد عن الصراع الإسلامي الفرنجي، بحث منشور في مجلة المورد العراقية، وزارة الثقافة-دار الشؤون الثقافية العامة، العدد الرابع، 2006: 47- 58.
[xi] قاسم عبده، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية،ط2، ذات السلاسل،1988: 88-89 ؛ ويُنظر: عبد القادر أحمد اليوسف،العصور الوسطى الأوربية، بيروت، 1976: 239- 240.
[xii] -قاسم عبده، الخلفية الإيديولوجية: 44.

[xiii] قاسم عبده، الخلفية الإيديولوجية : 45. ويُنظر، قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة- الكويت، 1410هـ-1990م: 135-136.
[xiv] قاسم عبده، الخلفية الإيديولوجية: 90.
[xv] الرّها: مدينةٌ بالجزيرة بين الموصل والشام، وبينهما ستة فراسخ، سمّيت بإسم الذي استحدثها وهو: الرّهاء ابن البلندي بن مالك بن دعر. – الحموي،أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي(ت 626هـ/ 1228م)، معجم البلدان، دار صادر-بيروت،1957: 3/ 106.
[xvi] ابن الأثير، الكامل: 10/ 193.
[xvii] ابن الأثير، الكامل: 10/ 198 ؛ ويُنظر- ابن واصل ، مفرّج الكروب: 1/ 94.
[xviii] ابن واصل، مفرّج الكروب: 1/ 160.
[xix] قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية: 200.
[xx] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، : 9/ 43؛ - قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي: 19-23.
[xxi] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 9/ 44. قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي:23.

المصـــــادر والمـــراجع

1-ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي مكرم بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري(ت630هـ/ 1233م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط2، 1415هـ/ 1995م.
2-ابن الجواليقي، أبو منصور موهوب بن أحمد بن الخضر(ت 540هـ/ 1145م)، في التعريب والمعرب، أو حاشية ابن بري على كتاب المعرب لإبن الجواليقي، تحقيق: ابراهيم السامرائي،ط1، مؤسسة الرسالة- بيروت، 1985م.
3-ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد(ت555هـ)، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق:سهيل زكار، طباعة دار حسان –بيروت(د.ت).
4-ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم(ت697هـ/1297م)، مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، ادارة احياء التراث القديم- وزارة المعارف المصرية، مطبعة جامعة فؤاد الأول، 1953م.
5-أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي(ت665هـ/1266م)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة،1962م.
6-أسامة بن منقذ الشيزري(ت584هـ)،كتاب الاعتبار، قدّم لهُ:عبد الكريم الأشتر،ط2، المكتب الاسلامي، 1424هـ/ 2002م.
7-الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد اللهالرومي(ت626هـ/ 1228م)، معجم البلدان، دار صادر-بيروت، 1957م.
8-عبد القادر يوسف، العصور الوسطى الأوربية، بيروت،(د.ت).
9-عبد القوي، زينب عبد المجيد، الانجليز والحروب الصليبية(في الفترة من 1189م-1291م)، الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية-القاهرة، 1996م.
10-العماد الأصفهاني، القاضي عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني الكاتب(ت597هـ/1200م)، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية- دمشق، 1968م.